

شعراء دار العلوم

بنلهم

حضرة الأستاذ عبد الرحيم بن محمود
المدرس بالمدرسة التوفيقية الثانوية

دار العلوم خير دار نجلت أدباء ، كتابا وشعراء ، وقد نيفت اليوم على الستين عاما ، وما زالت في قم الدنيا ابتساما ، وما كانت الفنون اللسانية التي حذقوها وتوفروا على تعليمها بعد تعلمها إلا وسيلة للكلام الصحيح الفصيح نثرا وشعرا — وقد نبغ من دار العلوم كتاب هم لها ميم البلاغة وعرائن الفصاحة وتجلت آثارهم في الصحف ولهم فيها الصدر كالأستاذ الشيخ عبد العزيز جاويش والأستاذ التابعي كما تجلت رسائلهم في المختارات الأدبية بأقلام محمد الحضري بك ومحمود أبي النصر بك وحفي ناصف بك وحسن توفيق العدل افندي والشيخ طنطاوي جوهرى والشيخ عبد الوهاب النجار مما اقتبس من الصحف ومؤلفاتهم المتنوعة — ولست أريد الآن الكتابة في أولئك الكتاب لأنى لم أعنونهم ولكنى أقصر كتابى على شعراء دار العلوم واذكر آثارهم التليدة والطريقة التي جادت بها قرائحهم ولقيت من الآذان استماعا ، ومن القلوب انتجاعا ومن النفوس استمتاعا . وقد اعتاد الأدباء المؤرخون أن يعرفوا المتأدبين بالأديب المترجم له بوصفه وصفاته ، وبإداعة ما يتصل بحياته ، من مولده إلى مماته ، لأن للنشأة التي نشأ فيها الأديب لوطنه وعصره ، أثر فى ثره وشعره . ولكنى لا أنسج على هذا المنوال ، لأن معرفتهم بأدباء دار العلوم أكثر مما يكتب ويقال — والمعترف لا يعرف ومن ذا الذى يحفل تاريخ حياة شعرائنا مثل حفي ناصف بك والشيخ محمد عبد المطلب وله ديوان مطبوع متداول

وكذلك الأستاذ علي الجارم والأستاذ عبد المغني المنشاوي والشيخ عبد الله عفيفي والأستاذ سليم المسلمي وشاعر الأهرام الأستاذ محمد عبد الغني حسن والأستاذ خلف الله والأستاذ سيد قطب من كتاب الأهرام والمغرد على قننها إلى غير أولئك ممن لم أذكرهم اليوم مجملاً وسأذكرهم غداً مفصلاً — واكتفى بتعرف شاعرية كل شاعر من شعره الذي أحلله تحليلاً فنياً من حيث المباني والمعاني أولاً والشعور ثانياً والخيال ثالثاً والمنطق رابعاً — وهذه دعائم الشعر لا النظم العروضي أي الكلام الموزون المقفى — وإني أسبر بمسبار عصرى الذى هو عصر كل منهم مبلغ الاستفادة بما رأى واختبر من المستحدثات وما انتفع به فى شعره من المخترعات وما أثر فيه وفينا من الأخلاق والعادات، والحقائق والترهات، — وأوخر الحكم له أو عليه بأدبه حتى تتم المقالات، لأن الحكم نتيجة المقدمات، فيلحق من الأقتدة إقبالا، ومن النفوس إجلالا؛ بعد أن يدخل الآذان بلا استئذان.

وما النثر الفنى الا شعر منشور إذ أنه قام على أركان الشعر التى سلفت وإن كنت لا أعرض له فى مقالتي التى هى بذلك العنوان لتجرده من أوزان الشعر العربى الجاهلى والاسلامى.

فإن أنكر على أحد حكمى، واتهم فهمى فليرد على كلنى — وإن أصبت فؤاد الحقيقة (وهى بنت البحث) فقد أصبت هدفى فى هذه الطريقة الطريفة — وهذا جناى وخياره فيه، وكل جان يده إلى فيه. وكانما أتمثل بملك البيان أحمد شوقى بك حينما قال:

إني وإن صفرت كاسى أخو كرم أسقى وأسقى أولى الأبواب من كاسى
وإني أريد المؤدبين على اتباع هذه الشرعة، وإن كانت صعبة،
فينبغي ألا يظنوا فى التراجم ويوجزوا فى النماذج ويجتزئوا بتفسير

مفرداتها اللغوية وتحليلها نحويًا لا يانيًا فقد ضاع الوقت وما أثمره في الإعراب، في غير إعراب وإطراب، والإبدال والإعلال في أطراد المقال فاعتلت بنات الشفاء وبنات النهى ولما يمن الله عليها بالإبلال — وحر قلباه — فإن ضاق وقت التدريس بالمدارس عن تحقيق هذه الغاية لتشعب المناهج الخفيفة المثقلة فلن تضيق عنها المدارس في غير المدارس والشعب العربية، في الأزهر ودار العلوم والجامعة المصرية، ولن تضيق بها المجلات الأدبية، والصحف اليومية.

وما على إذا ما قلتُ معتقدي دع الجهول يظن الحق بهتنا وأراني مضطرا إلى توضيح منهجي التحليل الذي أومأت إليه في صدر مقال حتى لا أذر مجالا لمستدرك ولا ريبه لمرتاب في كل ما أجملت وأوجزت فأثير سبيلي بنور الهداية في البداية فأقول:

(١) المعاني والمباني — يقصد الشاعر من شعره، ما يقصده الناثر من نثره أي الإبانة عما في نفسه من المعاني أيًا كان المقام كالغزل والمديح والهجاء والرثاء والوصف والفخر والعتاب والاعتذار والاستعطاف والسياسة وشكوى الحال والحكم والوعظ وضرب الأمثال، إلى غيرها من أبواب الأدب التي عرفت عن العرب.

ومن هذه المعاني ما هو فطري فيشترك فيه البدوي والحضري من العرب والعجم كالأوليات والأحوال المشتركة في الحياة والمشاهد التي يشهدها الناس في البر والبحر والسماء والهواء والمشاعر الباطنة كما توحى بها الخواطر بلا مبالغة ولا كد خاطر - واتفاق الشعراء في هذه المعاني القطرية لا يعد سرقة ولا توارد خواطر - ومنها ما هو غريب نادر انتزعه الخيال من المرائي الجميلة والميول الجليلة وألف بينها تأليفا يأخذ بالآل باب، في كل باب، وذلك يسمى المعاني المخترعة وهو في الفطر السليمة أكثر

انتزاعاً، وفي الأمم المتحضرة أجل إبداعاً وبه تتفاضل الشعراء، على أن يكون المعنى جليلاً على تساميه، وللحقيقة فيه نصيب موفور وإن لبست ثوب الخيال. فإن كان فيه مبالغة فعلى الأديب ألا يخرج بها عن العقل ومألوف الطبع. وعلى أن ترتب المعاني ترتيباً منطقياً وإن تداعت فينبغي ألا تجر إلى استطراد يخرجها من المقام إلى غيره في غير ما يقتضيه والاستطراد البديعي موطن يحسن فيه لمناسبة تسمويه. فتأخذ المعاني بعضها بأيدي بعض، على مد القرض، وتتساق كمتناسق تناسق الأزهار في الطاقة، والغزلان في الرشاقة.

أما المباني فتنتقى ألفاظها فتكون رشيقة رقيقة، سهلة جزلة، وتوثق الروابط بين عباراتها ويكون سداها البيان، ولحمها الاقتان، وتوشى بالبديع من البديع في غير تعمد وتكلف وإسراف. وحامد المقال أن يكون اللفظ جزلاً والأسلوب عذباً فينصب سرى المعنى في سرى المبني، من أقرب الطرق إليه وأطرفها لديه.

وقد كنت أعدى أعداء الصناعة اللفظية فأصبحت من نصرائها في الشعر العربي والنثر الفني إذا بلغت الغاية في الجمال والابتقان كنثر بديع الزمان وبين يدي أسواق الذهب لزعم الأدب أحمد شوقي بك يروعي فيه وفي شعره المبني والمعنى كأنهما أخذ السحر، في كل سطر، كما يروعي جمال التمثال، الذي يحقق معاني الجمال، وستجد أيها المتأدب شعراءنا مصورين يباينون يتخذون الصنعة. وسيلة للروعة، ولا غرو فإنهم شبوا وشابوا في وادي النيل تحت ظلال النخيل وصاحفوا نسيمه العليل الليل بين آثار المدينة الثليدة، في أحضان المدينة الجديدة، فتعلوا في دار العلوم بعد الأزهر وعاشروا أمشاجاً من الناس مختلفي الأجناس فكان منهم المعلون والقضاة والمؤلفون والمترجمون في المنقول والمعقول، والمعلوم

والمجهول ، وكانوا صادقى الحدس لطيفى الحس فكهمين فى سرعة خاطر
حاضرى الجواب بين الصحاب ولا عجب إذا كان إنشاؤهم عذبا ، وشعرهم
عجبا فلبلى الرياض مطبوعة على حسن الأنعام - ولم يحرموا أنفسهم جمال
الدنيا وجلالها وقد ظهر أثر الجمال والجلال فى شعرهم على ما ترى بعد
- إن من البيان لسحرا -

(٢) الشعر شعور لأنه عنوان الحياة النفسية بما اشتملت عليه من
مشاعر يملها الفؤاد على القلم فتسيل شعرا على القرطاس وتتداولها ألسنة
الناس - وأرق الشعراء شعرا أرقهم شعورا .

(٣) الشعر حقيقة وخيال ، ف الشعر الحقيقة شعر الحكمة والعظة
والأمثال ، - وإن من الشعر لحكمة - وشعر الخيال فيما عداها فتوثب
النفوس إليه كما توثب للصور الحسية الرائعة يد المصور الماهر . فى العابر
والغابر ، والخيال أداة التصوير الشعرى كما أن الألوان والذوق والرسم
أدوات التصوير الحسى . فالشعر بخياله صورة تتكلم أو كلام يصور .
وقد يفوق الشاعر المصور بالخيال البارع فقد يمثل لنا بكلمة مشهدا
لا يستطيع تمثله مصور ألف بين الألوان وأمعن فى الإجابة كل الأمعان
ولو كان روفائيل أمهر المصورين . وقد تلبس الحقيقة ثوب الخيال كما
يلبس الخيال ثوب الحقيقة .

(٤) الشعر منطق لأنه إذا لم يكن موزونا بميزان العقول كان كلاما
هراء متافرا . والشعور والخيال قد يشردان إذا لم يكن العقل رقيبا عليها
ليخفف من غلوائهما ويكبح من جماحهما . وما أصدق قدماء اليونان إذ
صوروا الشاعر فى مركب يقوده جوادان جامحان هما الخيال والشعور
وقد جعلوا أعتهم فى يد العقل أى المنطق ليكبح من جماحهما وإلا هوى
بالشاعر إلى الهاوية . ويا لتعريف الشعر بأنه الفلسفة تحمل زهرا . وإن

شدت فقل الشعر زهر في أفنان الفلسفة (وهي الحقيقة الواضحة المؤيدة بالحجة الدامغة) فالمنطق يعصم العقل من الخطأ كما أن علوم اللسان ولا سيما النحو تعصم اللسان واليراعة من الخطأ في أساليب البيان.

وآية المنطق أنك تنثر القصيدة ثراً مرسلًا بعد قراءتك لها فلا تزيد على أصلها ولا تنقص عنه فإذا سائر منشور القصيدة العقل كان قائلها شاعراً منطقياً وإلا فهو يهرف بما لا يعرف وكثير من أدبائنا ونقدة الأدب قديمه وحديثه قد عنوا بالمباني نقداً والمعاني يعدونها عدداً ولم يؤلفوا بين أجزائها طريقاً حتى يظهر لهم أنه معبد أو مقعد نخفي عليهم ركن من أركان الأدب ودعامة من دعائم النقد وهو العقل الذي إن لم يكن أقواها فليس دونها قوة وخطر العقل في التفكير أهون من خطأ اللسان في التعبير.

وقد رأيت أن أبدأ شعراء دار العلوم بشاعرها الأول حفنى ناصف

بك رحمه الله سنة ١٢٧٢ - ١٣٣٧ هـ = ١٨٥٧ - ١٩١٩ م على منهجى السابق وقد ترجم حياته الوسيط لأستاذى الفاضلين الشيخ أحمد الأسكندرى والشيخ مصطفى عنانى ويشرفنى أن أكون من أعلم الناس بأدبيه أدب نفسه وأدب درسه، لأننى من أبنائه المتأدين بأدبه فى الجامعة المصرية سنة ١٩٠٩، ١٩١٠ ميلادية.

وقد رأيت قد شعر فى أغراض شتى من غزل ورناء ووصف وشكوى الحال إلى غيرها وأجترى فى هذا المقال بعرض نموذجين من غزله العفيف فى لفظه الشريف ثم أكشف عن سحر مبانيه ودقة معانيه ورقة شعوره وحسن تخيله ونضج منطقته وهو استاذ اللغة والمنطق والأدب وفيها قد ألف وما استهدف - قال رحمه الله وهو مصطفى بأربعة للاستشفاء -

(١) النموذج الأول على البحيرة « جنيف في سويسرة »

سل المهاين إفيان ولوزان ماذا فعلن بقلب المغرم العاني^(١)
 إذ كن في الفلنك كالآفار في فلنك يشرفن فيه على ألعاب نيران
 فكم من الأرض سبهم للسماء وكم سهم تسدد لى من تحت أجفان
 يغلو البحيرة من نيرانها شرر كزفرتى حين يجرى مدمعى القانى
 يذهبن بالفلنك أيماناً وميسرة فيها ويطربن من توقيع ألحان
 سرنب يغنين بالآفواه مطربة وثلة برباتات وعيدان
 والورق فى الشاطى الأدنى تجاوبها تبدى أفانين شدو بين أفان

(ب) النموذج الثانى « عيون و عيون »

أرجعوا لى يا غيد مارمباد مهجتى قبل عودتى لبلادى^(٢)
 إننى قد شددت رحلى وأهلى فى انتظارى فأطلقوا لى فؤادى
 ليتنى لم أزر حماكم فانى فى هواكم أضعت كل رشادى
 وبرانى الضنا فصارت ثيابى فوق جسمى كمضرب ذى عماد
 وأتانى السقام من حيث أبغى صحة وانهزمت قبل الجلاذ

حدثوا أن فى حماكم عيوناً تذر الناس ضامرى الأجساد
 صدقوا إنها عيون ولكن كحلت منذ خلقها بسواد

جنّبونى ذكر العيون فقلبى فى ارتعاش من فعلها وارتعاد
 فهى كالكهرباء تومى بلحظ فتدق الأجراس فى الأكباد

(١) إفيان ولوزان مدينتان على بحيرة جنيف بسويسرة - المها البقر الوحشى مفردة -
 مهاة - العاني الأسير المعذب (٢) مارمباد مدينة فى النمسا شهيرة بمياهها المعدنية -
 الحارة التى يستشفى بها البادن فيخف جسمه فى غير إجحاف .